Issn : 2830-912X جوان 2025	حفريّات المعرفة Hafriyat Al-marefa	المجلد 5 Vol 05 العدد 1 Num 01

جمالية المقاومة الثقافية وصراع الوجود الفلسطيني في رواية "مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة" لربعي المدهون

The Aesthetics of Cultural Resistance and the Palestinian Existential Struggle in Rabai al-Madhoun's Novel "A Concerto of the Holocaust and the Nakba"

موسود رقية
moussoudreguia@gmail.com

يوسف غريب
gharibyoucef@gmail.com
المركز الجامعي تيبازة - الجزائر

الملخص:

تعد الرواية اليوم أداة فاعلة للمقاومة الثقافية، حيث تتجاوز السرد الفني التقليدي، لتصبح مسرحا حيويا لمقاربة القضايا المصيرية. وفي هذا السياق تبرز رواية "مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة" للروائي ربعي المدهون كنموذج سردي فذ يتجاوز السرد التقليدي إلى سرد بوليفوني يعكس صراع الوجود الفلسطيني، فهي لا تكتفي بتوثيق أحداث النكبة، بل تستخدم الجمالية البوليفونية للسرد، المتمثلة في بنية الكونشرتو الموسيقية، وتتخذ منها نقطة انطلاق لاستكشاف إحدى أكثر القضايا تعقيدا، وهو صراع الذوات المشتتة، وربطها بحادثتي الهولوكوست والنكبة، وكذلك نقد استغلال المأساة اليهودية لتبرير الاحتلال. ومنه تروم هذه المداخلة الإجابة عن إشكالية محورية في كيفية تصوير صراع الوجود الفلسطيني، ومحاولة استعادة هويته في ظل وجود الأخر، وإلى أي مدى تعد هذه الرواية فعلا ثقافيا مقاوما يهدف إلى تأكيد الهوية وكسر الحصار التاريخي على الذاكرة الفلسطينية مستعينة بالجمال الفني كصوت فلسطيني مقاوم، مما يجعلها نموذجا بارزا لأدب ما بعد استعماري.

الكلمات المفتاحية: الجمالية، الصراع الوجودي، المقاومة الثقافية، النكبة، الهولوكوست.

Abstract:

Today, the novel has become a powerful tool for cultural resistance, transcending traditional artistic narration to become a vital stage for addressing crucial issues. In this context, Rabai al-Madhoun's novel "A Concerto of the Holocaust and the Nakba" stands out as a unique narrative model that moves beyond conventional storytelling to a polyphonic one, reflecting the struggle for Palestinian existence. It does not merely document the events of the Nakba; instead, it uses the polyphonic aesthetics of the narrative, represented by the musical structure of a concerto, as a starting point to explore one of the most complex issues: the struggle of fragmented selves and their connection to both the Holocaust and the Nakba, as well as a critique of the exploitation of the Jewish tragedy to justify the occupation.

This paper aims to answer a central question: How does the novel depict the struggle for Palestinian existence and the attempt to restore its identity in the presence of the "Other"? It also seeks to determine to what extent this novel can be considered a defiant cultural act that aims to assert Palestinian identity and break the historical siege on the Palestinian memory, using artistic beauty as a voice of resistance, which makes it a prominent example of post-colonial literature.

Keywords: Aesthetics, Existential Struggle, Cultural Resistance, Nakba, Holocaust.

مقدمة:

تُعَدّ الرّواية أحد أبرز الأجناس الأدبية التي تتوغل في التاريخ، محولة إياه إلى فعل قصدي وجمالي يعيد استذكار الأحداث وتأكيد أهميتها. بصفتها مستودعًا للذاكرة، أصبحت الرواية مرآة تعكس التحولات التاريخية والاجتماعية والنفسية التي عصفت بالأمة العربية، مسلطة الضوء على صراعاتها المستمرة.

وفي هذا السياق، يأتي اختيار الروائي ربعي المدهون لتاريخ النكبة والهولوكوست كأحد أكثر الأحداث مأساوية في التاريخ الحديث، ليعكس عمق الجرح الفلسطيني الذي لا يزال ينزف. ففي ظل واقع يعج بالجوع

والتشريد واغتصاب الوطن، تقف رواية "مصائر كونشرتو" كشاهدة على هذا الصراع الوجودي والهويات، حيث لا تكتفي الرواية بالسرد التاريخي الجاف، بل تستخدم نهجًا فنيًا وجماليًا، منقبًا عن الخلفيات الاستعمارية والصهيونية للصراع بين الفلسطينيين واليهود. ومن هنا، تبرز الرواية كأداة للمقاومة الثقافية.

وأمام هذا الصراع الوجودي والهوياتي تروم هذه المداخلة إلى الإجابة عن إشكالية محورية:

- كيف تم تصوير الصراع الوجودي بين اليهود والفلسطينيين الذين بقوا في أرضهم بعد النكبة؟

- إلى أي مدى عكست الرواية جماليات المقاومة الثقافية، من خلال استعادة الذاكرة الجماعية والفردية لصراع الماضي المنكوب والحاضر المجبر على التعايش مع الآخر في ظل الحصار المحتل؟

وتأتي أهمية هذه الدراسة في إبراز دور الرواية العربية في مواكبة قضايا الأمة، وتحليل أحداث التاريخ وفق سرد إبداعي. كما تسعى إلى وضع الرواية كآلية مقاومة ثقافية تجمع بين السرد والصمود، وتدعو إلى الحوار الحضاري كسبيل للحفاظ على الهويات المشتتة.

1. جمالية السرد البوليفوني (الكونشرتو كرمز للمقاومة الثقافية):

تشكل الرواية دورا حاسما في تناول الأحداث التاريخية المفصلية؛ إذ تحولها من مجرد سرد تاريخي جاف إلى تجربة إنسانية حيّة تجمع بين الواقع والخيال، وبين الماضي والحاضر، إذ تساعد في حفظ الذاكرة الجماعية، وإعادة تفسيرها من منظورات متعددة، ومقاربتها من أوجه مختلفة؛ ثقافية، واجتماعية، وإنسانية. ويعزز هذا الوعي بأهمية القضايا المصيرية للأمة العربية في الجنس الروائي أهمية حضور الوعي النقدي والفني، كما يبرز حجم الظلم والمعاناة الإنسانية عبر العصور، فهي تتيح للقارئ ثانيا، وللكاتب أولا استكشاف التأثيرات التي خلفتها الأحداث التاريخية بمواقفها الأيديولوجية على مستعمراتها التي لازالت محتلة ظلما وقهرا وعدوانا.

وإن مثل هذه الحروب، والإبادات، والتهجير، والتطهير العرقي من خلال سرد حقائق تاريخية تعرضت لها شخصيات واقعية يجعل القارئ العربي على ارتباط وثيق بأحداث أمته وقضاياها الشائكة، وقد تفهم تعقيدات التاريخ في الرواية أكثر من كتابات المؤرخين التاريخيين باعتبار أن الرواية حسب عبد الله إبراهيم "تدرج الوقائع التاريخية ضمن التخييل السردي الذي يمنح للحقيقة الموضوعية لحظة متحركة في التاريخ، حيث تستطيع الرواية القبض عليها بالكامل، ومن صلب هذه اللحظة تنجز الرواية عالمها وشخصياتها ومصائرهم المتضاربة، كما تحاول إلقاء الضوء على أكثر اللحظات حساسية وإنسانية، والتي قد يعجز التاريخ عن الولوج إلى عمقها"[1].

أي أن الرواية ليست مجرد سرد للأحداث، بل هي أداة مقاومة ثقافية، تعيد صياغة الوقائع التاريخية بطريقة فنّية، فهي تمنح الأحداث التاريخية الجافة والثابتة في كتب التاريخ بعدا جماليا، وتجعلها نابضة بالحياة عبر سرد قصصي، كما تعمل على استيعاب الحقائق بكل أبعادها المختلفة، دون نسيان تفاصيلها الصغيرة، فالشخصيات الموجودة في الرواية يصفها الراوي بكل تقلباتها، وتأزماتها، وانفعالاتها الداخلية بين العودة للديار، أو البقاء في المنفى، مما يعتبر صورة واقعية شاملة لحياة الأفراد في ثوب جمالي سردي لأكثر اللحظات حساسية وإنسانية، فالتاريخ الرسمي عادة يركز على الحروب والمعاهدات والقرارات السياسية، ويتجاهل الجوانب الإنسانية والعاطفية للأفراد. والقصص التي أدرجت في هذه الرواية قد استطاع الراوي من خلالها الولوج لمشاعرهم الداخلية، وصراعاتهم الوجودية، والخيبات التي تعرضوا لها، فهي تكشف بذلك عن الجانب الخفي من التاريخ لفهم الماضي بشكل أعمق.

وتعتبر الرواية النموذج "مصائر كونشرتو: الهولوكوست والنكبة" لربعي المدهون نموذجا فريدا في كيفية توظيف الرواية لسرد التاريخ بطريقة تتجاوز السرديات الرسمية أحادية الجانب، حيث فتحت مجالا للحوار الإنساني العميق، من خلال استعارة البنية الموسيقية للكونشرتو التي تتكون عادة من أربع حركات، وهي تتفاعل في آلة الأوركسترا، وإن اختياره لهذه الحركات لم يكن مجرد اختيار؛ بل يحمل دلالات عميقة لسرد التاريخ وفق حركات متعددة، وحكايات منفصلة، يمثل كل جزء منها حركة أولى، ثم ثانية، وثالثة، ورابعة لشخصيات وأبطال، تسرد جزءا من المأساة الفلسطينية وتداعياتها المختلفة.

وعلى عكس السرد التاريخي التقليدي الذي يروي قصة واحدة، قدّم ربعي المدهون أصواتا متعدّدة، وشخصيّات من خلفيات أيديولوجية، ومذهبيّة متنوعة، بين فلسطيني يعيش في وطنه، وآخر مغترب، تجمعهم لقاءات، وروابط زوجية، وصداقات مختلفة مع هويّات من أصول يهودية، إنجليزية، أرمينية... ورغم هذا الاختلاف الهويّاتي فإن مصائر تلك الشّخصيات تتلاقى، وتتقاطع حكاياتها، وتتآلف مآسيها كما تتآلف الأوركسترا المنفردة في نهاية الكونشرتو، وهذا ما يؤكد أن تاريخ النكبة والهولوكوست ترك تأثيرهما على هوية الشخصيات، وعلى الذاكرة الجماعية.

ففي مقدمة الرواية يفصح الكاتب عما سيجده القارئ بين ثنايا صفحاتها "هذه رواية عن فلسطينيين بقوا في وطنهم بعد حرب 1948، وأصبحوا بحكم واقع جديد مواطنين في دولة إسرائيل ويحملون جنسيتها، في عملية ظلم تاريخي نتج عنها انتماء مزدوج، غريب ومتضاد لا مثيل له، وهي رواية عن آخرين أيضا، هاجروا تحت وطأة الحرب ويحاولون العودة بطرق فردية"[2]. يلخص هذا الاقتباس من مقدمة الرواية عبء التاريخ كظلم مستمر،

ارتبط ولا يزال بحادثتي النكبة والهولوكوست، الأولى التي قسمت الفلسطينيين إلى شخصيات الرواية الذين كانوا الجزء المشتت بين الوطن والمنفى، ووليد الذي يعود سرا لزيارة أمه مع زوجته الإنجليزية التي أحبت فلسطين، وعادت لتفقد منزل جدها الذي حوله اليهود إلى منزل بملامح يهودية، ثم محمود دهمان الذي رفض الهجرة رغم الملاحقات التي كانت تداهمه. والثانية أحداث الهولوكوست، تلك الإبادات الجماعية لليهود في الحرب العالمية الثانية، وكيف أدى تشتتهم إلى البحث عن موطن لهم، فكانت فلسطين هي مبتغاهم.

وبذلك فرضت الرواية على القارئ وشخصياتها التأقلم مع فكرة الانتماء المزدوج، أين ترتبط أحداثها بالتاريخ ونكباته، حيث ستشكل عبئا ثقيلا عايشناه مع شخصيات الرواية التي حاول الراوي تقديمها "بتوليف النص في قالب الكونشرتو الموسيقي المكون من أربع حركات، تشغل كل منها حكاية تنهض على بطلين اثنين، يتحركان في فضائهما الخاص... وحين نصل إلى الحركة الرابعة والأخيرة تبدأ الحكايات الأربعة في التكامل، وتتآلف شخصياتها وأحداثها ومكوناتها الأخرى مع ثيمات العمل التي حكمت كل واحدة من الحكايات، وقد التقت حول أسئلة النكبة والهولوكوست، والعودة"[3]. حيث استعرض الروائي صراع الشخصيات، وقصصهم التي بدت في كل حركة وكأنها منفصلة عن بعضها البعض، أو مستقلة عنها، ولكن النقطة الجوهرية أن الحركة الأخيرة تبدأ بجمع خيوط الشخصيات والأحداث لتلتقي في واقع واحد يشكل تيمة الرواية ككل.

وقد جمعت كل هذه الأحداث بين التجريب الأدبي والتوثيق التاريخي في محاولة من الروائي الفلسطيني ربعي المدهون تقديم صورة شاملة عن القضية الفلسطينية ومعاناة سكانها من خلال اعتماده على هيكل موسيقي، وأسلوب بوليفوني مستمد من تعدّدية الأصوات البوليفونية عند ميخائيل باختين، "لأنه يعتبر أن الرواية البوليفونية لا تعتمد على صوت واحد، بل تهمين عليها تعدّدية الأصوات، حيث يحتفظ كل صوت باستقلاليته وحريته، في مقابل تفاعلها مع الشخصيات الأخرى بحوار مفتوح"[4]. تتعارض فيه الأدوار، وتتشابك فيه الانفعالات الشخصية وفق رؤية فنية وإنسانية ترجمت معاناة الفلسطينيين داخل وخارج وطنهم، مركزا على شخصياتهم التي عانت من تشتّت هوياتي، وانتماء مضطرب بين حتمية البقاء في إسرائيل، أو العودة إلى فلسطين، وكيف يمكنهم مقاومة المحتل.

وإن "ارتباط الرّواية بالتّاريخ ليس لمجرد السّرد والتعبير عن الأحداث، بل للتغلغل في التاريخ، وكشف المسكوت عنه، وهذا ما جعل من الرواية جنسا يشمل الأجناس كلها، فهي جنس لا قانون له"[5]. والمسكوت الذي كشفه ربعي المدهون على لسان شخصياته هو ذلك الصراع الحاصل بين العالم العربي والغربي، أي بين الأنا والآخر. وإن كشف الأبعاد النفسية والاجتماعية، والإنسانية غالبا ما يتم إهمالها من طرف الكتابة التاريخية،

فالصراعات التي حدثت في الرواية تجاوزت حدثي النكبة والهولوكوست إلى حياة الأفراد التي عانت من كل ذلك، ولذا فإن الرواية قد انفتحت على التاريخ، وعلى السيرة الذاتية، والأسلوب القصصي، والموسيقى بأسلوب فنّي وإبداعي لتجعل من الأحداث التاريخية الجافة وسيلة فنية، وأداة مقاومة ثقافية في الآن نفسه.

وهنا تحولت الرواية من عبء تاريخي إلى أداة للمقاومة الثّقافية من خلال شخصياتها التي واجهت أحداث النّكبة والهولوكوست بطرق فردية، وانفعالات مختلفة، وأصوات متعدّدة، تدعوا فيها إلى إعادة قراءة التاريخ من وجهة نظر إنسانية، مما جعل الرواية عملاً أدبيًا وثّق معاناة جماعية. مستغلة المرونة الأدبية للسرد لتقديم وجهات نظر مختلفة ومتعددة حول قضيتي النكبة والهولوكوست لكن من منظور إنساني.

يدل عنوان الرواية في بادئ الأمر إلى مصائر الأشخاص المتعددة تلك التي جمعتهم حادثتي النكبة والهولوكوست، وللتناغم مع عنصري الألم والأمل، يحاول الروائي اختيار دمج المعاناتين بآلة موسيقية تشترك فيها الحركات الموسيقية مع تقاطعات الأحداث، ومصير الشخصيات. أين تستهل الرواية أحداثها بالحركة الأولى التي تركز على قصة وليد وجولي الزوجين اللذين أحبا بعضهما وحاربا بكل الطرق للعيش معا، وهنا تبرز والدة جولي "إيفانا" الفلسطينية الأرمينية التي أحبت طبيبا بريطانيا في زمن الانتداب، وتم تهجيرها خلال أحداث النكبة، فتهاجر مع زوجها إلى لندن، لكن قلبها يبقى معلقا بين فلسطين ولندن، هذه الذاكرة التي تأبى أن تنساها. لكن بعد وفاة إيفانا تقرر جولي العودة إلى فلسطين محاولة تجاوز شتاتها الذي يتأرجح بين العاطفة والذاكرة، وبين لغتها الإنجليزية، وحبها للثقافة الفلسطينية، أزقتها، شوارعها، فتقف بين مفترق طرق، بين الماضي الذي يلاحقها، والحاضر الضبابي الذي ينتظرها، فتحاول إقناع زوجها بالبقاء في فلسطين قائلة له بنبرة تملؤها العاطفة: "وليدو حبيبي، ما رأيك في أن نبيع بيتنا في لندن وننتقل للإقامة في عكا"[6]. لكن وليد يواجه ظروفا سياسية واجتماعية قاهرة تعيشها بلده، فنجده يعيش في حزن شديد، بين العودة للندن أين كان عمله مستقر، وعائلته سعيدة، وبين البقاء وسط بيئة مشتتة، ووضع متأزم غير مستقر، مما يؤثر على حالته النفسية، وعلى علاقته بزوجته جولي، التي تأبى المغادرة متحججة بوصية والدتها إيفانا التي طلبت أن يدفن رماد جثتها في فلسطين بعد وفاتها. فوليد لم يخطط يوما للعودة إليه فقد أوجعته المنافي والغربة ومحطات اللجوء فلسطينيته منذ الطفولة[7]. التي كان يحن فيها دائما إلى حضن أمه، وتراب وطنه، وشوارع مدينته، فرغم عيشه هناك، لازال قلبه معلقا هنا، هنا حيث يتنفس هواء وطنه، ويؤكد من خلال انفعالات مشاعره ما رآه من ذكريات أعادت إلى صميم فؤاده آثار حادثة النكبة التي لازالت تحيي بداخله جرحا لن يندمل.

أما قصة جنين وزوجها باسم في الحركة الثانية، فتسرد قصة جنين الفلسطينية الحاملة لجواز سفر إسرائيلي، وباسم زوجها بجواز سفره الأمريكي، وهما يعكسان صراعا آخر بين الشتات والاغتراب، فهما قلقان معا منذ قررا العودة إلى فلسطين، حيث يجدان عوائق كثيرة، كانت ولا زالت في انتظارهما، مما يسبب لهما شجارات متواصلة، واستياء دائم من حالتهما النفسية التي أثرت سلبا على علاقتهما الزوجية، فهما في كل مرة "ينفصلان في سفرهما، وليد يستقل مطار عمان في الأردن، ومن هناك يستقل سيارة أجرة إلى جسر الملك الحسين أين يمضي ثلاث ساعات عند الجسر، حتى يسمح له بالعبور للضفة الغربية، ثم يستأجر سيارة أخرى حتى يصل لبيت لحم ليلتقي بوالديه، أما هي فتسافر عبر مطار بن غوريون في اللد"[8].

وتتعسر حياتهما أكثر بعد أن رُفض وليد للعمل في أي مكان في فلسطين، ولا حقوق له هناك في بلده، كما أنه لا يتمتع بأي شكل من أشكال الضمان الاجتماعي، ورغم إلحاح زوجته على تحمل الظروف والبقاء في فلسطين إلا أنه لم يعد يطيق ذلك، يجيبها وليد في عبارة تنم عن يأسه وألمه "حياتي يا جنين صارت لعبة كمبيوتر، الربح فيها ما يفرق عن الخسارة، عايش في بلدنا كإني مواطن افتراضي، موجود في السجلات الرسمية، في وزارة الداخلية، عند الأمن العام، ويمكن عند الموساد، وفي مراكز الشرطة، بس مش موجود في المؤسسات الحقوقية، ولا في مؤسسات الخدمات الصحية والاجتماعية، حتى إنت يا جنين، حاضرة غايبة، زي كل هالفلسطينيين في هالبلاد، بس أنا يا حبيبتي غايب، أنا دعوة لتعذيب الذات، إعلان سيء بيوزعوه من غير مصاريع كل فلسطيني بيفكر يرجع للبلاد"[9]. فتحاول جنين من خلال بطل روايتها التي اختارت له اسم "باقي هناك" كرمز دلالي على الثبات وروح المقاومة والصمود، تعود إلى كتابتها في كل مرة شعرت فيها بيأس والحزن من قرار زوجها باسم بالخروج من فلسطين وعدم البقاء هناك.

لتلتقي الشخصيات جميعا في الحركة الرابعة والأخيرة مسترجعة أحداث النكبة والهولوكوست محاولة تجاوز الأحداث السياسية، ومداواة جروحهم، وانقساماتهم، بتقبل الوضع ثم تجاوزه، ليعيشوا بسلام مع الآخر اليهودي، وكل الطوائف الأخرى، وكل هذا الهيكل الموسيقي بحركاته الأربعة يجعل منها رواية فنتازية تحاكي الفلسطينيين الذين هاجروا من أرضهم إلى المنفى الكبير، ثم يحاولون العودة إلى بلادهم المحتلة رغم ما تعرضوا له إقصاء وتهميش.

2.1 جدلية الهولوكوست والنكبة- من التاريخ المأساوي إلى المصير الإنساني:-

تناولت رواية "مصائر: كونشرتو الهولوكوست والنكبة" لربعي المدهون جدلية معقدة بين حدثين تاريخيين مفصليين (الهولوكوست والنكبة) حيث قدم الروائي هذين الحدثين ليس كمأساة منفصلة، بل كجذور لمعاناة إنسانية وصراع وجودي حول أحقية الوجود على الأرض الفلسطينية. ويسعى الكاتب من خلال ذلك إلى تفكيك السردية التاريخية السائدة، وتقديم سردية مضادة تُعيد تأسيس الهويّة الفلسطينية من منظور إنساني عالمي، يدمج بين معاناة اليهود في الهولوكوست ومعاناة الفلسطينيين في النكبة.

فالهولوكوست تعتبر قمة الوحشية النازية التي كانت مدفوعة بعنصر الكراهية، مما أدى إلى تنظيم إبادة جماعية ضدهم، وساهم هذا الحدث في التعاطف مهم دوليا، مما ساهم في قيام دولة إسرائيل سنة 1948 في فلسطين، كملاذ آمن لهم، أما الحدث الثاني - النكبة - فقد أتى كنتيجة مباشرة لحركة صهيونية، وحرب عربية-إسرائيلية، استخدمت فيها قوات "الهاغاناه" الإسرائيلية أساليب تهجير جماعي، مما جعل الفلسطينيين لاجئين يعيشون شتاتا وتفرقا.

وإن هذا الصراع الوجودي بين الفلسطيني واليهودي حول أحقيتهما في العيش داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، كان سببا في بروز الأيديولوجيات المتطرفة، والآراء المتناقضة حول أحقية كسر هذا الحصار، والصراع الحضاري بين أهمية القضية الفلسطينية والشتات الذي يعاني منه أفرادها، وبين قضية الهولوكوست التي طالبت بأحقية بقاء اليهود في فلسطين، وقد رأى البعض أن تفكيك السردية التاريخية في رواية مصائر قد سمح بإعادة تأسيس الهوية الفلسطينية عبر استدعاء التاريخ كسردية مضادة لقضية النكبة والهولوكوست من وجهة نظر ربعي المدهون الذي حاول تناول القضية الفلسطينية في سياق إنسان عالمي، ودمج الحدث التاريخي – الهولوكوست والنكبة - كمنعطف بارز وكفعل مقاومة ثقافية شارحا أزمة اليهود في فلسطين، ومبرزا في الوقت نفسه معاناة الفلسطينيين، واستمرارهم في إثبات هويتهم في وجه التحديات الوجودية للوجود الفلسطيني في إسرائيل بعد النكبة.

ف"بحلول الخامس عشر من مايو 1948، كانت بريطانيا قد أنهت معسكراتها، ورحل جنودها تاركين فلسطين للمجموعات العسكرية اليهودية التي أعلنت قيام دولة إسرائيل، وعاد جون إلى بريطانيا مع العائدين من بقايا جنود الإمبراطورية التي كانت تنسحب من عظمتها"[10]. تعيدنا هذه الفقرة إلى حدث تاريخي مفصلي، وعن مقارنة بين مأساتين؛ الهولوكوست والنكبة، وتعيدنا إلى جذورها الأولى التي بدأت مع الحرب العالمية الثانية حين أعلن أدولف هتلر زعيم الحزب النازي كرهه الشديد لليهود وأمر بقتلهم بشتى الطرق التي تنوعت واختلفت أساليبها بين تسميم بالغاز، رمي بالرصاص، ثم خنق، وحرق للجثث أدى إلى وفاة ما يقارب إحدى

عشر مليون شخص أغلبهم من جنسيات يهودية، والبقية من جنسيات مختلفة، وذلك ما دفع بالروائي من إعادة تسليط الضوء على أحداث النكبة التي لا يمكن فصلها عن الهولوكوست، وعن تحول فلسطين من أرض كانت تحت الانتداب البريطاني إلى ساحة صراع على الوجود والهوية، فحادثة النكبة كانت نتيجة قرارات سياسية دولية، أعلنت قيام دولة إسرائيل، في مقابل خروج بريطانيا، ثمن دفعه الفلسطينيون حيث تم تهجيرهم، وتدمير قراهم، وأجبر الفلسطيني على ترك وطنه وأرضه بحثا عن ذاته ووجوده في ظل فقدان الأرض.

كما تعكس الفقرة تواطئ بريطانيا التي سلمت أرض فلسطين لليهود الإسرائيليين، لقد كان تاريخ النكبة حدثا تاريخيا مدمرا، ترك أثرا مريرا على الصراع الوجودي الهوياتي الذي عاشه ولا يزال الفلسطينيون داخل الأراضي المحتلة، حيث يركز الراوي من خلال عواطف وانفعالات وأحداث شخصياته التي تتنقل بين أمكنة ومدن وشوارع فلسطين مستذكرة ذكريات الماضي والحاضر، بشقيها المحزن والمفرح.

فمنذ سقوط فلسطين في أيدي الكيان الصهيوني، وإعلان قيام دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية بدعم من القوى الكولونيالية الإمبريالية والعربية، تعرض السكان الأصليون لسلسلة من الإبادات الجماعية، والتطهير العرقي، والتهجير، والطرد، ولم يكتفوا لكل ذلك، بل قاموا بمخططهم الصهيوني الاستيطاني وهو إحلال شعب مكان شعب آخر، فقاموا بتدمير كل الأماكن، والشوارع، والقرى، والمداشر، وحقول الزيتون، وكل ما يدل على تاريخ شعب في محاولة لاستئصاله من جذوره، وتطهير بصمات شعبه الذي عاش على هذه الأرض، وأثبت وجوده فيها فقد "سقطت عكا في الثامن عشر من مايو بأيدي المنظمات اليهودية وقتل أنترانيك أردكيان، شقيق مانويل وعم إيفانا في المعركة الأخيرة للدفاع عن عكا، مع عدد من المتطوعين المسلحين ببنادق قديمة، تجمعوا في مركز الشرطة بقيادة أحمد شكري مناع، وكان مانويل وزوجته قد هاجرا إلى لبنان عن طريق البحر، قبل سقوط المدينة بيومين... واستأجرت الحكومة اللبنانية مع وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الأنروا عام 1952 قطعة أرض أقام فيها مانويل وزوجته وما يزيد عن ثلاثة آلاف فلسطيني هم خليط من المسيحيين والأرثوذكسيين والكاثوليك الذين هجروا من حيفا وعكا ويافا"[11]. ولذا شجعت إسرائيل هجرة اليهود إلى فلسطين من كل أنحاء أوروبا، وسعت لتعزيز بقائهم على الأراضي الفلسطينية، ولتمكين انتشار خطة تقسيم فلسطين إلى دولتين فلسطين وإسرائيل بمباركة ودعم من الولايات المتحدة الأمريكية.

إن هذه الجدلية بين حادثتي الهولوكوست والنكبة، ومحاولة مقارنة تأثيرهما على كليهما قد تجاوزت حسب الروائي ربعي مدهون الجانب التاريخي، باتجاه البعد الإنساني، حيث يصبح الصراع على الهوية والذاكرة ليست كمجرد أحداث تاريخية، بل كمثير مشترك يعيشه الفلسطينيون في المنفى، بينما تستخدم قضية الهولوكوست

كسلاح أيديولوجي لإسكات النقد الإسرائيلي، وبين هذا وذاك، تدعوا هذه الجدلية إلى مصير إنساني، حيث يجب الاعتراف بمعاناة الآخر، وإلى التصريح بحق العودة للفلسطينيين، بهدف تحويل جدلية الصراع التاريخي إلى حوار إنساني.

- الهوية والذاكرة: صراع الوجود الفلسطيني بين الحنين والعودة:

تعيد أدوار الشخصيات استذكار تشكل أحداث النكبة، وكيف أعادت صياغة الهوية الفلسطينية مبرزة من خلال انفعالات شخصياتها تناقضاتهم بين بقائهم وانتمائهم لوطنهم، والواقع السياسي الذي فرضته أحداث النكبة الفلسطينية على هذا الصراع التاريخي والهوياتي الذي ابتلع مرارته، وتجرع مأساويته الفلسطينيون، مما فرض عليهم شتاتا وانقساما، وصراعا وجوديا. وقد أوضح وليد أحد أبطال الرواية ذلك حين زار متحف الهولوكوست، مبرزا كيف مرت هذه المعاناة، وتشكلت.

وليد الشخصية الرئيسية في الرواية يحكي عن تأثره وهو يتجول بين شوارع عكا القديمة، ويصف بين أزقتها وبناياتها روح المقاومة التي تسكن سكانها الأصليين في عدم مغادرتهم بيوتهم، وأرضهم، "لقد رأى لافتات كتب عليها 'من عكا مش طالعين باللغات الثلاث، فرغم هجوم اليهود الفرنسيين على لسان صاحب أحد الفنادق، وإغراق أهاليها بالمصاري، في ناس يا أستاز وليد، قتلها الفقر وباعت بيوتها، وفي ناس باعت من كثر مضايقات اليهود الي احتوا بين هون وبيت هناك، وفي ناس ماهنش عليها تبيع أبدا، هدول يا أستاز عن العكاوية الأصليين، الناس الي متمسكين بأرضهم وبيوتهم وهويتهم، الي ماسكين حجر عكا بأظافرهن""[12].

إنّ إعادة سرد حقب التاريخ من الذاكرة، لا يعد فقط حدثا تاريخيا، بل هي وسيلة مقاومة، وفعل ثقافي، وقوّة خفية لازالت مستمرة داخل كل كاتب فلسطيني يبتغي العودة إلى وطنه، وتشكيل هويته الفلسطينية هناك في مسقط رأسه، فالفلسطينيين الذين عانوا من هوية مزدوجة نتيجة حملهم للجنسية الإسرائيلية قسرا، والمهاجرين منهم في الشتات الذين يواجهون الاغتراب، ويسعون بكل الطرق للعودة إلى وطنهم، من أجل تشافيهم من تمزق وجودي لازال يؤرقهم وسط معاناة من التمييز، والحدود، وفقدان للوطن الأم.

فشخصيات الرواية من وليد وجولي، وجنين، وغيرهم من شخصيات الرواية تجسد صراع الوجود، وترفض الهجرة رغم الملاحقات، فهي تعيش تناقضا مريرا بين هويتها الفلسطينية وواقع بعضهم كمواطنين إسرائيليين، فوليد الذي هاجر إلى لندن مع زوجته الإنجليزية، تجبره زوجته إلى العودة سرا إلى عكا مسقط رأسه، لقد كان يهرب من صدمة الذاكرة، وليد الذي عانى من الشتات حين تزوج جولي وكان مقيما معها في لندن في سلام

وراحة نفسية وجسدية، لكن جولي تصر على العودة إلى الوطن، إلى جذورها، ورغم أن وليد يرغب بذلك ويحب أن يعود إلى مسقط رأسه، لكن بعد عودته مع جولي يكتشف أن مستقبله قد أصبح مجهولا، فهو مرفوض من كل عمل يربوا إليه، مما يزيد من أوجاعه، ويرغب بالعودة إلى لندن للتخلص من الظروف القاهرة التي يعيشها بسبب التضييق الحاصل عليه. أما جولي زوجته فقد مثلت التأرجح الحاصل بين وطنها الأم، ومسقط رأس أمها إيفانا، وبين عيشها في فلسطين، أو عودتها إلى لندن، تعيش تذبذبا وصراعا نفسيا بين ماضيها وحاضرها، بين اغترابها في فلسطين، وحلم العودة إلى لندن.

ومثلما واجه وليد وجولي مسير وجودهما، تقودنا شخصية جنين وزوجها باسم إلى نفس الصراع الوجودي بين هنا وهناك، وكيف لم يتأقلما معا وهم يعيشان حالة القلق من المنفى، حيث يصران على العودة إلى فلسطين، لكنهما في الوقت نفسه يبقيان عالقين بين واقع الإقامة في أمريكا ورفض العودة إلى فلسطين بسبب الظروف التي أعاقت بقاءهما، وحصولهما على إقامة دائمة، وهذا ما يعكس بعمق صراع المغتربين المشتتين بين الماضي والحاضر، وبين الهوية والاغتراب.

وهنا يتجسد جوهر الرواية في مقاربتها الجريئة لربط الهولوكوست بالنكبة، غير أن المدهون لا يهدف من هذه المقاربة التاريخية إلى المساواة بين الحدثين من الناحية التاريخية، بل إلى وضعهما في سياق المصير الإنساني المشترك للمعاناة.

ففي السياق العربي كان الحديث عن الهولوكوست يعتبر من المحرمات خوفا من تبرير النكبة، لكن الروائي ربعي المدهون يتجاوز الحاجز الأيديولوجي، ويقدم قراءة نقدية متحررة من القيود القومية، حيث نرى أن الهولوكوست جزء من القضية الفلسطينية، وتشهد شخصية "وليد" الذي يزور متحف الهولوكوست في القدس، في فهم مأساة اليهود التي كان دافعها في الأصل دافعا أيديولوجيا لإقامة دولة إسرائيل، التي بدورها أدت إلى مأساة الفلسطينيين - النكبة - فيجتمعا الحدثين في الرواية كمصيرين متشابكين، وإن فهم كل طرف لمعاناة الآخر هو الخطوة الأولى نحو الاعتراف بالحقوق، وفتح باب الحوار، بعيدا عن لغة الكراهية والصراع.

وإن أعادت الرواية سرد التاريخ الرسمي من وجهة نظر استعمارية، واستبدالها بتاريخ مغاير، روته من منظور الضحية والمهمش، فألجل إعادة الاعتبار للذاكرة الفلسطينية المنسية والمشوهة، ومن خلال سرد أحداث الشخصيات، ومعاناتها بين الرحيل والبقاء، وبين الغربة والمنفى، تجسد الرواية فعلا من أفعال المقاومة، ويصر الروائي على أن صراع الوجود الفلسطيني ليس مجرد حدث عابر في التاريخ، بل هو حقيقة جلية لا يمكن محوها أو تناسيها.

فالرواية بتركيزها على صراع الهوية الفلسطينية من خلال بحث الشخصيات عن استقرارها في فلسطين، اكتشفناه من خلال الذاكرة الجماعية لشخصياتها التي تأبى نسيان وطنها وما عاشته هناك، وبين صراعهم المستمر بين الرحيل والعودة، بين البقاء في المنفى، أم العودة إلى الوطن، حيث يصبح الحنين أداة للحفاظ على الذاكرة، بينما تظل العودة حلما معلقا بسبب الأوضاع المعيشية، والواقع السياسي. وإذ تحاول الشخصيات استعادة الذاكرة فلأنها تجسد من خلال ذلك فعل مقاومة ثقافية يقف سدا منيعا ضد محو الهوية الفلسطينية، ويعيدنا ذلك إلى المقاوم الثقافي من أصول فلسطينية "إدوارد سعيد" الذي ظل يعيش في المنفى، لكن قلبه أبى الانفصال عن بلده.

الخاتمة:

في ختام المداخلة برزت رواية "مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة" كعمل أدبي عميق، جمع بين براعة السرد، وجمالية المقاومة الثقافية، باعتماد هيكل موسيقي بوليفوني، فكك من خلاله الروائي ربعي المدهون بعمق صراع الهوية الفلسطينية في سياق حدثي النكبة والهولوكوست، مبرزا في الوقت نفسه التشابك المعقد بين التاريخ والذاكرة والوجود، ودور الرواية في تسريد التاريخ بعيدا عن الخلافات السياسية، وقد كانت شخصيات الرواية المتعددة الأصوات والجنسيات والمذاهب تتأرجح بين الشتات والعودة، بين الماضي والحاضر، مسلطة الضوء على الجرح النازف منذ النكبة، وتداعياتها المستمرة على الهوية الجمعية والفردية.

لقد تجاوزت هذه الرواية حدود السرد التقليدي، لتقدم رواية تجريبية وفق حركات موسيقية تجمعت داخل الفضاء الروائي، لتقدم لنا تأملات فلسفية وإنسانية حول معاناة الشعب الفلسطيني، ونظرته للآخر اليهودي، ومحاولة الحفاظ على أمل خافت بالمصالحة والتعايش الذي عاشته الشخصيات رغم اختلافاتها الأيديولوجية والعرقية والدينية. شكلت الرواية مرآة عاكسة ليس فقط لمأساة النكبة والهولوكوست، بل وتحديات الهوية الفلسطينية وسط عالم مشحون بالصراعات، مؤكدة على أن الروائي ربعي المدهون قد أكد على قوة الأدب وقدرته في توثيق التاريخ، وإعادة صياغته ضمن السرديات الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع والهوامش:

(1) عبد الله ابراهيم، التخيل التاريخي: السرد والإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011، ص 12.

(2) ربعي المدهون، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2015، ص 07.

(3) ربعي المدهون، المصدر نفسه، ص 07.

(4) Bakhtin Mikhaail, problems of Dostoevsky's poetic, translated by Carly emerson, University of Minnesota press, 1984, p6-7.

(5) سعيد بوعيطة، التاريخ والمتخيل السردي في الرواية العربية - دراسة في نماذج مختارة - دار نشر جامعة قطر، 2022، ص 12.

(6) ربعي المدهون، رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، مصدر سابق، ص 48.

(7) ربعي المدهون، المصدر نفسه، ص 50.

(8) ربعي المدهون، رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، مصدر سابق، ص 88.

(9) ربعي المدهون، المصدر نفسه، ص 101.

(10) ربعي المدهون، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، مصدر سابق، ص 31.

(11) ربعي المدهون، رواية مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، مصدر سابق، ص 31.

(12) ربعي المدهون، مصائر كونشرتو الهولوكوست والنكبة، مصدر سابق، ص 40.